شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

نستفتح هذا الدرس المبارك في كتاب قيِّم لمؤلف من أهل الحديث، وأئمة الدين هو الإمام الدارمي، عثمان بن سعيد الدارمي، وكتابه "الرد على الجهمية".

وبين يدي هذا الكتاب الحافل نقدم بمقدمة يسيرة تتعلق بالسنة والبدعة، وظهور الافتراق في هذه الأمة، فقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، روى هذا الحديث جمع من المحدثين قديماً، وصححه جمع منهم، ودلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة الدالة على سنن الله الكونية في الافتراق، ومن أصرحها قول النبي صلى الله عليه وسلم: {لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه}، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: {فمن}.

وقد نشأ خطُّ الافتراق في هذه الأمة بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنَّ أمير المؤمنين عمر سأل أصحابه يوماً إبان خلافته: أيكم يذكر ما حدَّث به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتن؟ فقال حذيفة وهو الخبير العالم بأحاديث الفتن: ما لك؟ فقال له حذيفة: يا أمير المؤمنين! فتنة الرجل في أهله وماله تكفِّرها الصلاة والصيام، قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن أسألك عن الفتن التي تموج كموج البحر، قال: ما لك ولها يا أمير المؤمنين، فإنَّ بينك وبينها باباً، فقال رضي الله عنه: أيُفتح الباب أم يُكسر؟ قال: يُكسر، قال: أكسراً لا أبا لك، إذاً لا يُغلق أبداً.

فسئل حذيفة رضي الله عنه عن الباب أكان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أنَّ دون غدٍ الليلة.

فسئل من الباب؟ فقال: عمر، وفعلاً كان عمر رضي الله عنه سدًّا منيعاً، وباباً متيناً ضدَّ الفتن التي اجتاحت الأمة بعده، فانفتح باب الفتن بعد ذلك، وظهر هذا بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما جرى من خُلْف بين الناس.

وكان الخُلْف في أول أمره في أمر السياسة والملك، إلا أنَّه بعد ذلك اتخذ منحى عقدياً، فنشأت أول بدعة في الإسلام وهي بدعة الخوارج التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، ووصفها توصيفاً لا يمتري فيه أحد، حتى قال الإمام أحمد: فيها عشرة أحاديث جياد. في صفة الخوارج، وتبعتها بدعة التشيع والغلو في علي رضي الله عنه وآل البيت، ثم في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم وعلى رأس المائة ظهرت بدعة القدرية، حيث ظهر في البصرة معبد الجهني، ومن قال بقوله: إنَّ الأمر أُنُف. فظهرت القدرية وأنكر عليهم الصحابة أيما إنكار. ثم تلتها بعد ذلك فتنة المرجئة، فما زالت هذه الفتن

بعضها يمسك برقاب بعض، وينشأ بعضها ردًّا على بعض، ولزم أهل السنة والجماعة خطَّ الاعتدال والصراط المستقيم، وحمل هذا الدين من كلِّ خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، لقد كان أهل السنة والجماعة هم أهل الحديث، أهل الرواية والدراية، الذين تلقوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة ومن التابعين، وأدوه إلى من بعدهم، فما زال أهل السنة يحملون هذا الحديث، ويحافظون عليه، ويعتنون بضبطه، والتمسك به، والاعتصام بنصوص الكتاب والسنة.

ثم إنَّها نشأت فتنة عظيمة وهي فتنة التجهم، وهذه الفتنة نشأة في مطلع المائة الثانية حينما وُجد رجل يقال له: الجعد بن درهم، أنكر صفات الله عز وجل، بل أنكر أسماءه وصفاته، وزعم أنَّ الله تعالى لا يمكن أن يتصف بصفة ثبوتية، وكان من شأن هذا الجعد أن قُتل سنة مائة وتسعة عشر على يد خالد بن عبد الله القسري، وسيذكر ذلك الدارمي في مستهل كتابه.

غير أنَّه تلقفها بعده رجل طوَّح بها في الآفاق، ونشرها في الخافقين، وهو الجهم بن صفوان السمرقندي، فقد تلقف هذه المقالة البائرة، وناظر عليها، وبثَّها في الناس، فباء بإثمها وإثم نشرها حتى صارت المقالة تُنسب إليه ولا تُنسب إلى الجهم، فيقال: الجهمية.

وانتصب أهل السنة والجماعة للرد على هذه البدع على مختلف أنواعها، وكان حامل الراية هم أهل الحديث رحمهم الله الذين تلقوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفهموه عن أصحابه، ونافحوا عن السنة، فكان يصنِّفون المصنفات المتخصصة باسم السنة، ومرادهم بالسنة إذ ذاك أصل الدين، وأصل الملة، ومفاصل الاعتقاد، فكانوا ينافحون عنها، ويذبُّون عنها، ويردون على مخالفيها.

ولم ينتصف القرن الثاني الهجري نحو سنة مائة وخمسين إلا وقد استقرت فتن كبار بين ظهراني المسلمين، فتنة الخوارج، وفتنة المرجئة، وفتنة القدرية، وفتنة الجهمية، هذه البدع الكبار كانت فاشية بين الناس، واستهلكت من استهلكت بفتنتها، وأضلَّ الله تعالى من أضلَّ بها، وقام أهل السنة والجماعة بالرد عليها ونقضها، وكان ممن انتدب لهذا الأمر العظيم من المحدِّثين الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي التميمي رحمه الله، وهذا الإمام إمام فحل قوي العارضة، شديد الحجة، له قدم صدق في الذبِّ عن السنة، فقد ولد الإمام الدارمي نحو سنة مائتين للهجرة، وتلقى العلم عمن سلفه من العلماء، ومن أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل، وحسبك به، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وهذه الطبقة المميزة، تلك الطبقة التي وقفت في وجوه الجهمية، وتصدَّت لهم ولغيرهم من أهل البدع، فعن هؤلاء صدر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي وتلقى علومه.

وألَّف الدارمي رحمه الله كتابين عظيمين في الرد على الجهمية:

أحدهما: الكتاب الذي بين أيدينا وهو "الرد على الجهمية".

والثاني: "نقض عثمان بن سعيد على الكافر العنيد فيما افتراه على الله في التوحيد". ويقال أحياناً: "نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي".

وهذان كتابان عظيمان أشاد بهما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، حتى قال ابن القيم رحمه الله في "اجتماع الجيوش الإسلامية": (وكتاباه من أجلّ الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكلِّ طالب سنة مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه،

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية، ويعظمهما جداً، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما) انتهى.

صدق رحمه الله، في هذين الكتابين من الأدلة العقلية والنقلية ما لا يوجد في غيرهما، بل إنَّه يتبيَّن للقارئ أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كثير من ردوده على مخالفيه إنَّما استفاد من كلام الدارمي، فقد كان الدارمي رحمه الله قوي الحجة، قوي العارضة، واضح المقصد، شديداً في تحقيق الإثبات، لا يختار من العبارات إلا أبينها، ويدقق في الأمور حتى لا يدع شيئاً يتشبث به المخالف، هذا نَفَسه رحمه الله، كما كان شديد الوطأة، يلمس الإنسان في نَفَسه حدَّة على مخالفيه، وما ذاك إلا لقوة غيرته على دين الله عز وجل، فكان في كتابيه غُنية وكفاية وشفاء لكل طالب حق.

والإمام الدارمي رحمه الله قدمه راسخة في السنة، له كتاب "المسند الكبير"، وله هذان الكتابان، وله غيرهما من المصنفات الحديثية.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا قد قرر فيه جملة من المسائل التي كان الجهمية ينازعون فيها.

والجهمية - كما أسلفنا - تنتمي إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، غير أنَّها جمعت الجيمات الخبيثة الثلاث: جيم التجهم، وجيم الإرجاء، وجيم الجبر، وإضافة إلى بدع عقدية أخرى، ولذلك اشتد نكير السلف على الجهمية، وكفروهم.

فأما جيم التجهم، فالتجهم هو: إنكار صفات الرب عز وجل وأسمائه، فالجهمية يزعمون أنَّ الله تعالى هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، بمعنى: أنَّهم لا يثبتون لله تعالى اسماً ولا صفة، ويزعمون أنَّ أسماء

الله تعالى مخلوقة اصطنعها الناس، فلا يعتقدون لله تعالى في ذات الأمر صفة ثبوتية، وبذلك كانوا من أشد أنواع الغلاة من المعطلة.

وأما جيم الإرجاء فلأنَّهم أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، بل غلوا حتى جعلوا الإيمان هو مجرد المعرفة، فكانوا أشد غلاة المرجئة.

وأما الجبر فلأنَّهم يقولون بالجبر المطلق، وأنَّ العبد مسلوب الإرادة والفعل.

فجمعوا هذه السوءات الثلاث، إضافة إلى عقائد أخرى باطلة، كقولهم بفناء الجنة والنار، وغيرها من العقائد الفاسدة.

اشتد نكير السلف على الجهمية، وكفَّروا الجهمية، حتى قال ابن القيم رحمه الله:

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

وينبغي لطالب العلم أن يعوِّد نفسه على سماع كلام الأئمة المتقدمين، وأن لا يقتصر في مباحث الاعتقاد على كلام المتأخرين، وإن كان كلام المتأخرين فيه زبد وخلاصات، لكن ينبغي أن يدرك طالب العلم النفس السلفي الذي كان عليه الأئمة المتقدمون في ردِّهم على أهل البدع.

فنستعين بالله تعالى في قراءة هذا الكتاب، والكتاب قد طُبع لأول مرة على يد مستشرق ألماني يقال له: كوستا تتستا، ونشره سنة (١٩٦٠م)، وهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين أن يقيِّض لهم من غيرهم من يخدم هذا العلم، فطبعه في ذلك، واعتنى به، وبذل فيه مجهوداً يُشكر عليه، ثم بعد ذلك انتقل بعد طباعته إلى أيدي المسلمين، ونُشر نشرات غير علمية عن طريق المكتب الإسلامي، ثم بعد ذلك اشتغل

به الشيخ بدر البدر جزاه الله خيراً، وحققه تحقيقاً حسناً، ثم حُقق مؤخراً على يد أحد طلبة العلم وهو أبو مالك الرياشي، والكتاب جدير بالعناية بلا ريب.

فنستعين بالله تعالى في عقد هذه المجالس المتتابعة لقراءة هذا الكتاب، وإن يسَّر الله تعالى لاحقاً قرأنا كتابه الآخر "نقض عثمان بن سعيد".

بسم الله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، اللهم اغفر لشيخنا وللمسلمين أجمعين.

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه "الرد على الجهمية": [بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر وأعن برحمتك.

أخبرنا أبو المكارم عبد العظيم بن عبد اللطيف بن أبي نصر الشرابي الأصبهاني في كتابه إلينا قال: أخبرتنا الشيخة أم الصبح ضوء النساء بنت أبي الفتح عبد الرزاق بن محمد بن سهل الشرابي، بقراءتي عليها في ربيع الثاني من سنة سبع وستين وخمسمائة قالت: أنبأ أبي الإمام أبو الفتح عبد الرزاق قراءةً عليه في دارنا بأصبهان، في صفر سنة تسع وعشرين وخمسمائة (قال): حدَّثنا الشيخ الإمام نجم الخطباء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المذكِّر الهروي المقيم بصع قرية من قرى هِرَاة فيما قرأت عليه بها من أصل سماعه، بخطِّ الحافظ أبي الفتح بن سمكويه قلت له: أخبركم الشيخ الفقيه أبو روح ثابت بن محمد الأزدي السعدي في شهور سنة ست وخمسين وأربعمائة قال: أنبأ أبي أبو محمد محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل (قال): حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن إبراهيم القرشي، أنَّ الإمام أبا سعيد عثمان بن سعيد قال].

الحمد لله، هذه سماعات الكتاب، إذ أنَّهم كانوا يثبتون في قرة الكتاب السماعات التي تدلُّ على صحة نسبة المصنف لمصنفه.

[قال: الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، عالمِ الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، يعلم سرّ خلقه وجهرهم، ويعلم ما يكسبون، نحمده بجميع محامده، ونصفه بما وصف به نفسه، ووصفه به الرسول. فهو الله الرحمن الرحيم، قريب، مجيب، متكلم قائل، وشاء مريد، فعَّال لما يريد، الأول قبل كلّ شيء، والآخر بعد كلّ شيء، له الأمر من قبل ومن بعد، وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، وله الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، يقبض ويبسط، ويتكلم، ويرضى ويسخط، ويغضب، ويحب، ويبغض، ويكره، ويضحك، ويأمر وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين والقبضتين، والقدرة والسلطان والعظمة، والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير].

هذه القطعة هي خطبة الكتاب، استهلها بحمد الله عز وجل، وأفصح فيها عن معتقد أهل السنة والجماعة من إثبات ما أثبت الرب سبحانه وتعالى لنفسه، وأثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنى والصفات الأعلى، ويلاحظ الإنسان في مسرد هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى أنَّ الإمام الدارمي رحمه الله لم يفرِّق بين صفة معنوية وصفة فعلية وصفة خبرية، بل ساق القول فيها سوقاً واحداً، بمعنى: أنَّه يجب أن يُثبت لله الأسماء الحسنى، لا يُخرم منها شيء مما أثبت الرب لنفسه، فله

سبحانه الأسماء الحسنى كما قال ذلك في عدَّة مواضع في كتابه: ((وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى))[الأعراف:١٨٠]، ((فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى))[الإسراء:١١٠]، فالله تعالى قد سمَّى نفسه بأسماء لم يصطنعها خلقه، بل هو سمى به نفسه، فهي أسماء قديمة أزلية أبدية، وكذلك له صفات حسنى، فما من اسم من أسماء الله تعالى إلا وقد تضمن وصفاً حميداً يوصف به الرب عز وجل، وصفاته إما أن تكون صفات معنوية كالعلم والحياة والقدرة والحكمة وما أشبه، أو أن تكون صفات فعلية كالاستواء والمجيء والنزول والسخط والرضا والغضب والكراهة ونحو ذلك، أو أن تكون صفات خبرية كالوجه واليدين والعينين والساق، وما أشبه ذلك، فالواجب على كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يرضى بما وصف الرب به نفسه، وما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن لا يردَّ شيئاً منها لشناعة يستشنعها، أو لوهم طرأ عليه، فالله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبخلقه، ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم بربه من غيره، وأغير على ربه من سائر خلقه، فلا يجوز لكائن من كان أن يردَّ ما سمى الله به أو وصف به نفسه لشبهة طرأت عليه، أو لشناعة استشنعها، وإنَّما يجب عليه أن يطيب نفساً ويقرَّ عيناً بخبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، ويعلم أنَّ كلَّ ما وصف الرب به نفسه فهو غاية الكمال، وأنَّ له المثل الأعلى، هكذا يجب على كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يتقبَّل نصوص الوحيين، وأن لا يحاكمهما إلى عقله، بل يتهم عقله ويذعن للنص، ويعلم ما قاله الله عز وجل ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))[الشورى:١١]، فهاتان الجملتان دستور عظيم لكلِّ مؤمن ناصح لنفسه، ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))، فنزِّه ربك سبحانه عن العيب والنقص ومماثلة المخلوقين، واعلم أنَّ له صفات ثبوتية لقوله: ((وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))، فقَرْنُ الله تعالى بين هاتين الجملتين معناه: أن نثبت لربنا ما أثبت لنفسه على

الوجه اللائق به، دون أن يتطرق إلى الأذهان شيء من لوثات التشبيه، وهكذا كان الصحابة الكرام يتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر صفات الله تعالى، لا يستشنعون شيئاً منها ولا يردوه، حتى إنَّ أحدهم قام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعه يقول: {يضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَره}، فقال: يا رسول الله، أو يضحك ربنا؟ سؤال مستفهم ومستبشر، قال: {نعم}، قال: لن نعدم خيراً من ربٍّ يضحك. ولم يدر بخلده ولم يطف بخياله أنَّ من لوازم الضحك وجود أسنان، ولهوات، وشفتين، ولسان، مما يدعيه ويسبق إلى أذهان هؤلاء المعطلة، فيهربون من التشبيه ليقعوا في التعطيل، بل اعتقد في الله تعالى ما يليق بجلاله وعظمته، إذاً فالواجب علينا أن نسير على هذا النحو وهو أن نسوق الكلام سوقاً واحداً في أسماء الله وصفاته، لا نفرِّق بين صفات معنوية وخبرية وفعلية، بل نعاملها جميعاً بالإمرار والإقرار، فنعتقد ثبوت معانيها، ونفوِّض كيفياتها إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: [فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصفات، فإنَّما يعبد غير الله، وليس معبوده بإله، كفرانه لا غفرانه].

هذا من قوة تعبيره وجزالة ألفاظه رحمه الله أنَّه يقول: إنَّما نعبد هذا الرب الموصوف بالأوصاف السابقة، فمن ادعى إلهاً معبوداً لا يتصف بهذه الأوصاف، ولا يتسمى بهذه الأسماء التي سمى ووصف بها نفسه، فإنَّما يعبد غير الله في الواقع، إنَّما اتخذ إلهاً صوَّره في ذهنه، أو اعتقده في قلبه على خلاف الإله المستحق للعبادة، فهو في الواقع يعبد غير الله، وذلك الإله الذي ادعاه واصطنعه كما قال: (كفرانه لا غفرانه).